العلوم الاجتماعية

التاريخ ... ما هو؟

« إذا أراد العالم أن يكون مؤرخاً ، فعليه أن يكون رجل اجتماع ... »

للأستاذ فؤاد عوض واصف

التاريخ ... ما هو ؟ عنوان سبقنا إليه العلامة الألماني لامبرشت ؛ فلعله كان من بين الذين أثارهم ذلك التضارب الثير والاختلاف الكبير بين اتجاهات التاريخ المختلفة ، حتى لقد احتار طلاب العلم ولم يدروا ، أهو أنف كليوباترا الدقيق الذي غير مجرى التاريخ المصري القديم ، أم هي عوامل طبيعية وجغرافية لم يكن لسحر كليوباترا وجمالها دخل فيه ، أم هو الشعب أقام التاريخ المصري القديم كما أقام كليوباترا وأقعده كما أقعدها ؟

التاريخ ... ما هو ؟ هل هو الإنسان بما ركب فيه من ميول ونزعات تنمو تارة فيزدهر التاريخ ، وتضمحل أخرى فتضيع أصداؤه ؟ أم هي الطبيعة بجبالها وأنهارها بغاباتها وأشجارها ، ينمو التاريخ في أحضانها مزوداً بأعاصيرها ورياحها بثورتها وهدوئها ، أم هو المجتمع يتمخض عنه التاريخ « كما يتمخض الناتج الكيميائي عن مزيج من العناصر » ، دون أن يكون للفرد فيه أو للعوامل الطبيعية غير دور ثانوي ؟ ...

التاريخ ... ما هو ؟

* * *

كان التاريخ في عهوده الأولى عبارة عن مقطوعات نثرية لا تقرر الواقع ، وكانت أغلب القصص التي تروى في ذلك الحين مختلفة ، وكانت المعابد مكاناً تسجل فيه بعض الأحداث ومعجزات الآلهة . أما في روما ، فكان أكثر ما يشغل الشعب الأخبار السياسية ، ولذلك كانت تدون على جدران المعابد .

وجاء المؤرخون الأول من بلاد أيونا ، واشتهروا بأسفارهم ورحلاتهم العديدة التي كانت عماده في جمع الأخبار وتسجيلها . ومن هؤلاء هيرودوت أبو التاريخ الذي طاف بعدة بلاد ، وزار مصر حيث تعرف إلى كهنتها ، فكانوا له أكبر العون ، وأمدوه بالقصص المختلفة وأخبار الآلهة ووقائع الحروب . وجاء بعد هيرودوت توكيديدس وا كزنوفان وغيرهما ، ومجموع ما خلفه لنا هؤلاء وإن يكن يحوي الكثير من الحقائق ، فإن الطابع الأدبي والشعري غالب عليه(١)

وفي القرون المسيحية الأولى كان التاريخ مقصوراً على مجرد ذكر الوقائع والأخبار المسيحية المختلفة ، وحتى القرن الثالث عشر الميلادي كان التاريخ في معظمه وقائع وأخبار دينية ، وكان غرض المدرسين أن يبينوا كيف أن الأحداث التاريخية تتابع في نظام إلهي ؛ فالحياة الإنسانية سلسلة عجائب ومعجزات إلهية ، هي تجليات لله في خيرها ، وتجليات للشيطان في شرها(٢)

والنهضة الأدبية التي ظهرت في القرن الثالث عشر قادت إلى الكشف عن كثير من النصوص المفقودة ، وأمدت التاريخ بعناصر جديدة ، فظهرت لأول مرة مؤلفات تاريخية منظمة مثل مؤلفات مكيافيلي

وفي القرن السادس عشر أصبح المؤرخ يمد حركة الاكتشافات الكبيرة ، على علم ببلاد جديدة وشعوب جديدة فاتسعت بذلك معلوماته واتجه إلى البحث في فروع جديدة من أفرع التاريخ كاللغة والديانات وغيرها ...

وبعد الثورة الفرنسية ظهرت القوميات فكانت دافعاً كبيراً للبحث عن منابع التاريخ القومي لرغبة الناس في التغني بماضي أوطانهم وتفوق عناصرهم ، فظهرت الكتب التاريخية حافلة بالوقائع الحربية وتراجم مشاهير الرجال . ولا يزال التاريخ يتقدم حتى بلغ المرحلة التجريبية ؛ وظهرت الخطوط الأولى لهذا التقدم الهائل في مؤلفات بارتسولد نيبورر الذي يعد واضع منهج التأريخ العلمي ، ومن عهده أصبح التأريخ يستند إلى مناهج شبيهة بمناهج العلوم الطبيعية ، وأصبح المؤرخ يتخذ من نفسه موقف الباحث العلمي الذي يبحث عن الوقائع مجرداً عن كل غاية ، وانحصر عمل المؤرخين في هذا الدور على جمع الوقائع والأخبار وتحديدها تحديداً

(١) Encyclopoedia Britannica : History .

(٢) The Spisituel interpretation of History : mathews

علمياً وتنسيقها فى مجموعات منظمة ؛ ولم يكن المؤرخ يرمى إلى تفسير الوقائع أو بيان الرابطة العلية التى ترتبط بها الأحداث التاريخية لرغبته فى الابتعاد كل البعد عن النزعة الذاتية

ولكن هل من الممكن أن تكون هذه المجموعة الكبيرة من الوقائع المحددة تحديداً علمياً دقيقاً ، هى كل عمل المؤرخ ينتهى عندها نشاطه ؟ لا بد للمؤرخ من أن يخطو خطوة أخرى حتى يجعل من الوقائع حقائق يقبلها العقل ، ذلك لأن الواقعة التى تريد أن تؤكد نفسها من غير تفسير أو علة ، لا يمكن أن تكون حقيقة مقبولة ، لأنها وهى تقرر وجودها تنكر شرطاً أساسياً للوجود الحقيقى[1] . إن الوقائع المنفصلة — كما يقول كروتشه — جافة وثقيلة ، ولا بد للفكر من أن ينمرها بنفسه حتى تكتسب الصفة العقلية : « إن الوثائق والآثار تعود إلينا رجالها ، فنتمثلهم أحياء عاملين منفعلين ، نتمثلهم بأصواتهم وهيئاتهم وعاداتهم ، وكأنهم عابرو سبيل التقينا بهم منذ فترة قصيرة ... ولكن تبقى خطوة ثانية ، هى البحث عن الرجل الخفى وراء الرجل الظاهر ، البحث عن المركز ومجموعة الأعضاء والعوامل الداخلية التى كانت علة حدوث الوقائع ... تلك هى الدراما الداخلية ، شىء يختلف عن جمع الأخبار »[2] . والقاعدة الأساسية التى يعرفها المؤرخ الآن « اجمع الأخبار ثم اربطها علمياً وفسرها »[3]

الخطوة الأولى إذا فى العمل التاريخى هى جمع الأخبار وتحديدها تحديداً علمياً دقيقاً . والخطوة الثانية ، وهى التأريخ بمعناه الحقيقى تتجه إلى تفسير الوقائع والكشف عن الروابط العلية التى ترتبط بها الأحداث التاريخية

ولما كانت عملية التفسير التاريخى عملية ذاتية Subjective تعددت النظريات واختلفت الاتجاهات ، ومن هنا جاءت كتب التاريخ مصبوبة فى قوالب مختلفة وفى كثير من الأحايين متناقضة

والذى ننبيه من هذا البحث العلمى هو تحديد هذه الاتجاهات المختلفة ، وبيان أوجه النقد فيها ، ثم نحاول أن نكشف عن هذا الاتجاه الجديد الذى يمكن رد الأبحاث التاريخية تسلم من وجوه النقد . وسنرى أن هذا الاتجاه هو علم الاجتماع الحديث ، فموضوع التاريخ وعلم الاجتماع واحد ، وهو الإنسان فى نشاطه الاجتماعى .

***

والاتجاهات المختلفة فى التفسير التاريخى يمكن أن تنقسم إلى قسمين :

١ — نظريات متيافيزيقية أو ميتافيزيقية مقنعة بحجاب علمى

٢ — نظريات علمية

أولا : النظريات الميتافيزيقية

١ — النظرية الدينية : تتلخص فى القول بوجود علة متعالية هى رائدة الأحداث التاريخية تحددها وتقودها نحو غاية يعلمها الله . وهذا التفسير لا يزال له أنصار معاصرون مثل لورنت البلجيكى وروخول الألمانى . وفلتت الإنجليزى ؛ فعند هؤلاء علة الوقائع التاريخية هى إرادة الله ، والتاريخ سلسلة من معجزات الله

٢ — النظرية العقلية : تتجه هذه النظرية فى تفسيرها لعلل الوقائع التاريخية اتجاهاً يرمى إلى القول بأن هذه الوقائع تتم تبعاً لنظام عقلى مرسوم ، وكل واقعة تاريخية لها غرض وجودى ، ومن شأنها أن تحدث تقدماً فى المجتمع

ولإثبات خطأ هذه النظرية يكفى أن نقول إن الأبحاث التاريخية العديدة تثبت لنا أن الوقائع التاريخية تتم فى أغلب الأحايين إن لم يكن فى كلها بعكس ما تزعمه هذه النظرية . فليست الصفة العقلية بملازمة للوقائع التاريخية ، فالمؤسسات وغيرها لا تقوم فى الغالب إلا لإشباع رغبة منشئيها وأصحابها ، وإن الحصر ليقصر عن تعداد الأحداث التاريخية التى كانت سبباً فى تأخر المجتمع لا فى تقدمه تبعاً للصفة العقلية التى تزعمها هذه النظرية

٣ — النظرية الهيجلية : وهى نظرية الأفكار التى تلاحظ من خلال[1] الشعوب كرائدة وقائدة لها . وقد ظهرت هذه النظرية فى ألمانيا بشكل « الرسالة » Beruf التى توكل إلى الشعوب والأفراد فيكون الزمام بأيديهم فتحقق الأحداث التاريخية تبعاً لمشيئتهم وتوجيههم

(١) Reasom in politics : K. B. smellie p. 175

(٢) History and Historiography : B. Croce p. 66

(٣) Ibid p. 72

(١) Introduction to the Study of history : Langlois Seignobos p. 286.

وهذه النظرية شبيهة بالنظرية السابقة ، لأنها تفترض أن الأحداث التاريخية تتحقق بطريقة عقلية ومن شأنها تقدم المجتمع، فما قيل فى نقد النظرية السابقة يمكن أن يقال فى نقد هذه النظرية

٤ — نظرية التقدم المستمر والضرورى للانسانية ، وقد اعتنقت هذه النظرية من بعض الوضعيين وترد إلى العلامة سبنسر. فسبنسر فى كتابه « مبادئ علم الاجتماع » يزعم أنه بدراسته للأحداث التاريخية قد استنبط قوانين عامة تتحكم فيها وتعمل باستمرار على تقدم الإنسانية ورقيها . وفى نظره أن الإنسانية تتقدم من البسيط إلى المركب ، ومن التجانس إلى اللاتجانس ، وأنها تتطور أيضاً من الحالة الأنانية إلى الحالة الغيرية

ولكن البحوث الحديثة قد أثبتت خطأ نظريات اسبنسر كلها ، فالأنانية موجودة فى عصرنا الحالى ، وفى كثير من الأحايين لا تختلف عن أحط أنواع الأنانية الموجودة فى الشعوب البدائية ؛ وحسبنا ما هو مشاهد فى استراليا من قيام بعض الجماعات الأوربية بصيد الزنوج فى عطلة الآحاد كأنهم يتصيدون حيوانات لا حق لهم فى الحياة . فالأنانية والغيرية موجودة فى الشعوب البدائية والحديثة بدرجة تكاد تتشابه فى كثير من المواطن[1]

٥ — النظرية الحيوية : هذه النظرية استعارت تفسيرها من عالم الكائنات الحية ، فقد أراد أصحابها أن يدرسوا الروح التاريخ المختلفة من لغة وقوانين وعادات ... إلخ . كما لو كانت كائنات عضوية حية تملك قوة وراثية كامنة فيها هى علة النشوء والتطور فيها . ونضرب مثلا لنظرية التطور الحيوى Entuickelung بأبحاث برونتير فى تاريخ الأدب ، وهى أبحاث شهيرة استعارت تفسيراتها من عالم الكائنات الحية

وسينوموس يرد على هذه النظرية بالقاعدة الآتية : « إذا أردت أن تبحث عن علل حادث تاريخى فابدأ بتفسيرها تجريبياً ، وإذا أردت أن تستعمل تجريدات بعد ذلك فابتعد عن كل مجاز يظهر هذه العلل فى صورة موجودات حية ... »

هذه هى أهم النظريات الميتافيزيقية والشبه ميتافيزيقية التى تناولت تفسير الأحداث التاريخية والكشف عن عللها بوجهات نظرها المختلفة . وقد بينا وجوه النقص فى هذه النظريات المختلفة وقصورها الواضح فى بيان التفسيرات الصحيحة للأحداث التاريخية ...

ثانياً : النظريات العلمية

١ — النظرية الجغرافية والظروف الطبيعية المحيطة بالإنسان: ترتبط الوقائع التاريخية تبعاً لهذه النظرية ارتباطاً علمياً يقوم على الظروف الإقليمية والاختلافات الجغرافية والطبيعية . فعند راتزك ، الجبال والأنهار والبحار وغيرها من العوامل الجغرافية هى العلة المباشرة للوقائع التاريخية . فمثلا متشنيكوف يقول : « إذا تساءلنا عن العامل الذى كان سبباً لأن تصل المدنية إلى درجة النضوج فسيكون الجواب : إنه المكان الذى هيأ أكثر من غيره مجالا لتكاثف الناس »[2]

والآنسة سمبل تقول : « إن انتقال المخترعين الأول من الشرق إلى الغرب إنما كان للتخلص من كلاب جيرانهم وتباحهم المزعج »[3]

وهذه النظرية شائعة فى الكتب التاريخية إلى حد كبير ويحمس لها الكثيرون من أئمة التاريخ كمونتسكيو[4] وابن خلدون[5] . والواقع أنه إذا كان للظروف الجغرافية والطبيعية الأثر الذى لا ينكر ، فإن الإنسان بما امتاز به من قوة فكر يخضع فى الطبيعة فى أغلب الأحايين ويسيطر عليها ، وهذا ما جعل كلود برنارد يقول عن الإنسان : « إنه السيد الآخر للطبيعة le contremaitre de le nature »[6] .

٢ — النظرية المادية التاريخية : هذه النظرية تنظر إلى الاقتصاد كعلة للوقائع التاريخية . فالطاحونة التى كانت تدار بالهوا

(١) L' Origine et le deueloppemeni desidées morales : E. Weslermarck Tome I (hommicide) .

(١) he new History and Socio! Studies : H. E. ames p. 48

(٢) he Spiritnel interpretation of history : Mathews 18

(٣) راجع كتابه « روح القوانين » : Léspril des Lois .

(٤) راجع محاضرات الأستاذ على عبد الواحد وافى للسنة الثالثة فلسفة بجامعة فؤاد الأول .

(٥) troduction à l'étude experimentale de la medcine : Bernard p. 25.

قد أوجدت مجتمعاً « يتحكم فيه أمراء الأقطاع » ، وأما الطاحونة التي تدار بالبخار فقد أوجدت مجتمعاً رأسمالياً » ؛ فالتحول الاجتماعي من النظام الأقطاعي إلى النظام الرأسمالي يرجع إلى تحول الطاحونة التي تدار بالهواء إلى طاحونة تدار بالبخار[1] ...

وأهم من قال بهذه النظرية هو كارل ماركس . فكارل ماركس جعل الحياة الاقتصادية هي العامل المحرك للحياة الاجتماعية والأحداث التاريخية وموقف الإنسان ما زاد الحياة الاقتصادية موقفاً « سلبياً Passif » .

وهذه النظرية برغم شهرتها حافلة بالأخطاء النظرية والعملية . فأتباع كارل ماركس أنفسهم في عصرنا الحالي في روسيا وإن اتفقوا مع أستاذهم في كون العامل الاقتصادي هو أهم العوامل الاجتماعية ، فهم يخالفونه في نظرته إلى الإنسان باعتبار موقفه من الحياة الاقتصادية موقفاً سلبياً ؛ فالاشتراكية الحديثة تقرر أن الإنسان عامل إيجابي actif وأن الحياة الاقتصادية ترتد إليه ، فهو الذي يتمها ويوجهها دواء السبيل[2] .

وإن المقام ليضيق بنا إذا أردنا تعداد الأخطاء النظرية والعملية من النظرية المادية التاريخية التي سلبت الحياة والفكر من الإنسان الناطق وأعطته للمادة الصماء ...

٣ — النظريات النفسية : أهم هذه النظريات بالنظريات بالنسبة للتاريخ نظريتان :

(أ) نظرية التقليد . (ب) نظرية الدوافع .

(أ) نظرية التقليد : أول من قال بهذه النظرية جبرائيل تارد وتتلخص في أن ظهور فرد قوي أو قائد شجاع يكون عاملا على انبثاق حضارة جديدة . فنظرية تارد تنسب كل الأحداث التاريخية إلى أفراد وهم الرجال العظماء « The great men » ، فتراهم يقولون « نابليون فعل كذا وكذا ... » . والعلة التي جعلت انجلترا في عهد الملكة (أنا) تختلف عن انجلترا في عهد الملكة اليزابيث ، والتي جعلت جامعة هارفرد اليوم تختلف عنها منذ عشرات السنين إنما ترجع إلى أفراد « إنه الفرد منبع الأفكار الجديدة ، والاختراعات والقواعد القضائية وغيرها من عوامل الإصلاح ... »[3] .

وظاهرة التقليد عند تارد تقوم على ثلاثة عناصر :

١ — التكرار .

٢ — المعارضة .

٣ — القبول .

وتكون هذه العناصر الثلاثة حلقة دائرية ، تبدأ محدودة ثم تأخذ في الاتساع بسرعة وبدون توقف . وعنصرا التكرار والقبول هما العنصران البارزان في هذه العملية ، وعنصر المعارضة يهيأ ، في هذه الحركة الدائرية لظهور عباقرة مخترعين . ويمكن أن تفهم العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة عندما تعتبر أن عنصر التكرار المستمر يعمل بنفسه على مضاعفة القبول وازدياده ، وفي حالة المعارضة يعمل على ظهور وسائط أخرى من شأنها أن تحدث اتجاهات جديدة وتضاعفها بدورها ...[1]

ولعل نظرية التقليد هي أكثر النظريات العلمية شيوعاً في مناهج البحث التاريخي ، مع أن التقليد كما يقول العلامة دركيم « هو توليد أتوماتيكي ناتج عن فعل بدون أن يتدخل في هذا الفعل أية عملية عقلية واضحة أو غير واضحة »[2] فانتشار عادة من العادات في مجتمع ما لا ترد إلى تقليد الأفراد الذين بدأوا بممارسة هذه العادة تقليداً إرادياً كما يزعم تارد ، وإنما يرجع انتشار العادة إلى الشعور الجمعي المتولد والذي كان هؤلاء الأفراد أول من استجاب له » فالتقليد هنا بمعنى آخر تماماً غير هذا الذي يعنيه تارد .

(ب) نظرية الدوافع : يقول ميرفي ونيوكمب في كتابهما « علم النفس الاجتماعي التجريبي » ، إنه إذا كانت ظاهرة التقليد قد حظيت بالأنصار العديدين في أواخر القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين ، فإنه لم يعرف حتى الآن انتصار لنظرية كذلك التي حظيت به نظرية الدوافع التي كان أول من قال بها ماكدوجل الأمريكي . فماكدوجل يقول « إن مظاهر الأفراد بعضهم مع بعض في المجتمعات ، ترجع بعد تحليلها إلى الدوافع الفطرية » ، وهذه الدوافع عند ماكدوجل أربعة عشر أهمها الجوع والعطش والغريزة الجنسية وغريزة الأمومة[3] .

(البقية في العدد القادم) فؤاد محمد واصف

---

(١) The Spiritual interpretation of history: matthews p. 33

(٢) political Theories : Barnes Bolshevism .

(٣) The new History and Social Saenees ; Barnes p. 104

(١) Ibie p. 174 .

(٢) L' annèe Sociologique I p. Durkhein .

(٣) Experimental Social psychology : murphy and neuwmb p. 9